فصل في زين الدين وعز الدين

هما رجلان كبيران من آل عدي بن مسافر، لم تذكرهما اليزيدية في كتابيهم الجلوة والكتاب الأسود كما ذكروا الشيخ حسنًا، أما زين الدين فهو كما في تحفة الأحباب للسخاوي، في الكلام على تربته بالقرافة الصغرى، الشيخ الصالح العارف المحقق الربانيُّ شيخ مشايخ الإسلام، زين الدين أبو المحاسن يوسف بن شرف الدين محمد بن حسن بن عدي بن أبي البركات بن صخر بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن الحسن بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميَّة بن عبد شمس، ثم ساق نسبه إلى معد بن عدنان، إلى أن قال: القرشيُّ الأمويُّ نزيل القاهرة.

والذي يفيده سياق هذا النسب أنه حفيد الشيخ حسن المتقدم ذكره، غير أن نعت السخاوي له بتلك النعوت يدلُّ على أنه كان في نظره مرضيَّ الطريقة، بعيدًا مما كان منطويًا عليه جدُّه حسن من المنكرات، ثم ذكر أنه توفي سنة ٦٩٧، وأن القبة التي على ضريحه وافق الفراغ من عمارتها في ربيع الأول سنة ٧١٥،[١] وأنه قدم إلى الشام فأُكرم وأُنعم عليه بإمرة، ثم تركها وانقطع على هيئة الملوك من اقتناء الخيول المسوَّمة والجواري والخدم والملابس، وعمل الأسمطة الفاخرة، ثم خاف على نفسه فترك ولده عز الدين هناك ودخل إلى القاهرة وأقام بها فأُكرم بها.

---

[١] الظاهر أن هذا تحريف بالنسخة، فإن المنقوش على باب هذه القبة سنة ٧٢٥ كما سيأتي.

وترجمه المقريزي في خططه في كلامه على الزاوية العدوية، وابنُ فضل الله العمري في مسالك الأبصار استطرادًا في ترجمة الشيخ عدي بن مسافر، وذكرَا أنَّه ابن أخيه.[٢]

وخلاصة ما قالاه عنه أنه وفد من الموصل إلى الشام فأُكرم وأُنعم عليه بإمرة كبيرة، ثم تركها وانقطع في قرية تعرف ببيت فار[٣] وانغمس في النعم والملاذِّ وعاش عيشة الملوك، وحُكي أن بعض نساء الطائفة القيمُرية[٤] كانت مغراة به مطنبة في تعظيمه متغالية في الاعتقاد بصلاحه، وأنفقت عليه أموالًا جليلة، وكانت غير مصغية إلى من يعذلها فيه، فاحتال أخصَّاؤها عليها بأن حملوها في قفَّة وأشرفوا بها عليه، وهو عاكف على المنكرات فما زادها ذلك إلا ضلالًا، وقالت: إنما يتدلَّل الشيخ على ربِّه! وضاعفت له الإنفاق.

قال ابن فضل الله: «وحكى لي شيخنا شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي الكاتب رحمه الله تعالى، قال: بُعثتُ مع الأمير الكبير علم الدين سِنْجَر الدوادار؛ ليحلفه في أوَّل الدولة الأشرفيَّة[٥] فأتيناه وهو في قريته مثل الملك في قلعته؛ للتجمل الظاهر والحشمة الزائدة والفرش الأطلس وآنية الذهب والفضة والغَضَار الصيني وأشياء تفوت العدَّ، إلى غير ذلك من الأشربة المختلفة الألوان والأطعمة المنوعة، فلما دخلنا عليه لم يحتفل بنا، وأتاه الأمير علم الدين فقبَّل يده وهو جالس لم يقم له، فبقي الدوادار قائمًا قدَّامه يحدِّثه، وزين الدين يسأله لا هو يجلس ولا زين الدين يقول اجلس، ثم أمره بالجلوس فجلس على ركبتيه متأدبًا بين يديه، ثمَّ لمَّا حلَّفناه أنعم علينا بجملة طائلة تقارب خمسة عشر ألف درهم.»

قلتُ: وقد كان تخلف منهم الشيخ عز الدين أميران وأُمِّر فبقي مدَّة أميرًا بدمشق ثمَّ بصفد ثم بدمشق، ثم ترك الإمرة وآثر الانقطاع وأقام بالمِزَّة، وكانت الأكراد تأتيه

---

[٢] في هذا تساهل؛ لأن بينه وبين جده صخر أخي الشيخ عدي أربعة آباء، ولكن من كان من ذرية شخص فهو ابنه.

[٣] هي قريتهم ببقاع العزيز قبل انتقالهم إلى لالش بجبل هكَّار.

[٤] القيمرية، وعبَّر عنهم ابن فضل الله في مسالك الأبصار بالقيامرة: جماعة من أعيان أمراء الأكراد منسوبون إلى قيمر بفتح القاف وسكون الياء وضم الميم، وهي قلعة في الجبال بين الموصل وخلاط، ولأحدهم المدرسة القيمرية بدمشق وحي معروف بهذه النسبة، وتسمى هذه المدرسة اليوم بمدرسة «القطط» ويلفظها عامة دمشق «القطاط» بفتح الأول والإشباع.

[٥] هي دولة الأشرف خليل بن قلاوون.

من كل قطر بصفايا أموالها تقربًا إليه، ومنهم على ما حُكي مَن كان يجلس بين يديه، ثم إنه أراد الخروج على السلطان وتبعه طوائف الأكراد من كل بلد وباعوا أموالهم بالهوان واشتروا الخيل والسلاح وآلات الحرب، ووعد رجالًا ممن تبعه بالنيابات الكبار، ونزل بأرض اللجون، وأتى السلطان خبرهم وأنهم على هذا لم يؤذوا أحدًا في نفس ولا مال، وإنما يبيعون أموالهم بالرخص ويشترون الخيل والسلاح بالغالي، فأمر تنكز نائب الشام بكشف أخبارهم وقص آثارهم، وأمسك السلطان من كان بالزاوية العدوية بالقرافة. إلى أن قال: «واختلفت الأخبار، فقيل: إنهم يريدون سلطنة مصر، وقيل: بل كانوا يريدون ملك اليمن، وقلق السلطان لأمرهم وأهمَّه إلى أن أمسك تنكز نائب الشام عزَّ الدين المذكور وأودع الاعتقال حتى مات، وفرَّق الأكراد، ولو لم يتدارك لأوشك أن تكون لهم نوبة.» انتهى. وفي خطط المقريزي أن إمساك عز الدين كان مدة الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقال السخاويُّ: سنة ٧٣٣.

قلنا: والذي ذكراه عن الشيخ زين الدين، وما كان منطويًا عليه من المنكرات يخالف ما نعته به السخاويُّ من النعوت الجليلة، وكذلك حادثته مع الشهاب محمود وعلم الدين سِنْجَر، وحادثة افتتان إحدى القيمريَّات به، ذكر السخاويُّ أنهما وقعتا مع ولده عز الدين، واختلفت أقوالهم في عز الدين، فقال المقريزي وابن فضل الله: «وكان تخلف منهم الشيخ عز الدين أميران.» أي تخلف بالشام، فاقتصرا في التعريف به على جعله من الطائفة، وقال السخاوي: إنه ابن زين الدين، كما تقدم، ورأيت له ترجمة في الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر جاء فيها أنه ابن بنت الشيخ عدي، ونصها:

> أميران عز الدين الكردي ابن بنت الشيخ عدي قدم الشام فوُلِّي بها الإمرة، وكان قومه يأتون إليه من كل فجٍّ، ويتقربون إليه بالأموال، ثم شاع أنهم يريدون الخروج على السلطان، فأمسك الناصر من كان منهم بالقرافة، وكتب إلى تنكز بكشف أحوالهم، فأرسل إلى عزِّ الدين المذكور فسأله عنه فقال: يريدون أن ينفردوا بالمملكة. فقال: وما السبب؟ فقال: هذا شيء تخيلوه في نفوسهم، فقال: لم لا تمنعهم؟ فقال: هم يعتقدون فيَّ وفي جميع أهل بيتي، ولكن حطَّني في القلعة يتقلل جمعهم، ففعل فتفرقوا وصاروا بعد ذلك يجيئون إلى البرج الذي هو فيه محبوس فيستنجدون له، وكان حبسه سنة ٧٣١، وكان حسن الشكل تامَّ القدِّ صبيح الوجه.

انتهى.

قلنا: والذي ذكره السخاوي في تحفة الأحباب وغيره من المؤرخين أن الشيخ عديَّ بن مسافر كان أعزب، وأن المرويَّ عند طائفته: «أنه سأل الله تعالى أن يجعل ذريته في أخيه صخر بن مسافر، فاستجاب الله دعاءه.» فكيف يتفق مع هذا أن يكون عز الدين ابن بنته؟ والظاهر أن في نسخة الدرر الكامنة التي وقفنا عليها تحريفًا، بأن يكون قوله: «بن بنت الشيخ عدي» محرَّفًا عن: «من بيت الشيخ عدي.» ولا سيما أن لفظ «ابن» ورد بالنسخة مرسومًا بغير ألف، ويسهل تحريفه عن لفظ «من»، والله أعلم.

ولعلَّ القارئ الكريم قد استشعر معنا من أخبار هؤلاء الزعماء أن هذه الطائفة الصوفية أخذت تتحوَّل في بعض العصور إلى عصابة ثورية نزَّاعة إلى المُلك، ولولا ما صُودمتْ به من الملوك والأمراء لكان لها شأن غير الذي كان، والظاهر أنهم كانوا يستميلون إلى عقيدتهم بعض عظماء الدولة؛ للاستعانة بهم على مآربهم وردِّ المكروه عنهم، فقد ذكر ابن الجزري[٦] في تاريخه عن الأمير بدر الدين بكتوت الأقرعي المتوفى بدمشق سنة ٦٩٤، أنه كان ممن ينتمون إليهم، وحكى عنه ظلمًا وجبروتًا وإعجابًا بالنفس مع تعفُّف عن أموال الناس وبيت المال، وذكر أنه كان متوليًا شدَّ الشام زمن الملك الظاهر «بيبرس»، وعزل ثم تولى شدَّ الصحبة في الدولة المنصورية،[٧] إلى أن قال: «وكان ينتمي إلى أصحاب الشيخ عديٍّ وانتفع به العدوية رحمه الله وإيانا.» ونذكر أننا وقفنا أثناء المطالعات على بعضِ مَن كانوا ينتمون إليهم أو ينتصرون لهم، ولكن فاتنا تقييدهم.

[٦] هو محمد بن إبراهيم بن الجزري المتوفى سنة ٧٣٩ كما في الدرر الكامنة، وعندنا من تاريخه جزء مصور بالشمس فيه من سنة ٦٨٩ إلى سنة ٦٩٩. وللأمير بكتوت المذكور ترجمة في المنهل الصافي لابن تغرى بردى، وأخرى مختصرة في تاريخ ابن الفرات ليس فيهما تعرض لانتمائه إلى هذه الطائفة.

[٧] أي دولة المنصور قلاوون كما في المنهل الصافي.